

تمثيلات المقدس والمدنس في الرواية الصحراوية " الخباء " لميرال الطحاوي أنموذجا

**The representations of the sacred and the profane in the
desert novel "The hidden" by Miral Al-talhawi-a model-**

سميحة عباس¹

¹ جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)، samiha.abbes@univ-annaba.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/28 تاريخ القبول: 2023/07/16 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص:

تهدف هذه الدراسة، إلى البحث عن تمثيلات المقدس والمدنس في الرواية الصحراوية من خلال الكشف عن أبرز خصوصيات المجتمع الصحراوي، الذي اكتسب المقدس فيه مكانة استعلانية وقيمة اجتماعية، وأضحى محور الرحي الذي تدور حوله كل اهتماماته السياسية أو الاجتماعية أو الدينية، وهذا ما وقفنا عليه في رواية "الخباء" لميرال الطحاوي، التي تجاوزت فيها وظيفة المكان الصحراوي الأولية التحتية المحددة واشتغلت بدلالاته الاجتماعية وأبعاده الثقافية، لأنه شديد الالتصاق بالهوية العربية.

كلمات مفتاحية: المقدس ، المدنس، الرواية العربية ، المكان الصحراوي.

Abstract:

This study aims to search for the representations of the sacred and profane in the desert novel by revealing the most prominent characteristics of the Saharan society, in which the sacred has acquired a status of superiority and social value, and has become the focus of the mill around which all its political, social or religious interests revolve, and this is what we stood on in the novel "Al-Khaba" by Miral talhawi, in which the function of the desert place exceeded the specific infrastructure and

worked with its social significance and cultural dimensions, because it is very attached to the Arab identity

Keywords: The sacred, the profane, the desert novel, The desert place.

*المؤلف المرسل: سميحة عباس

1. مقدمة

اتخذت أعمال ميرال الطحاوي من الصحراء مسرحاً، ومن تراثها مرجعاً ومن أساطيرها لغة، وقد مكنتها هذه الثلاثية المهمة من استحضار عالم الصحراء البدوي بلهجته الخاصة وطريقته المميزة في رؤية الوجود، وما رواية الخباء إلا مثالا على موقف ميرال من معنى المكان الصحراوي واشتغالها بدلالته الاجتماعية وإبعاده الثقافية، لأنه يتعدى مفهوم الإطار الحدث إلى عالم محلي شديد الالتصاق بالهوية العربية شكلا ومضموناً، وعلى هذا الأساس اعتبر صلاح فضل رواية "الخباء" منطقة تتلاقى فيها حضارات ثلاث: حضارة البدو في لقاءها الهامشي مع حضارة الفلاحين، وفي استنادها إلى حضارة الفراعين الغابرة.

إن علاقة المكان الصحراوي بالرواية العربية الحديثة تتجاوز وظيفته الأولية التحتية المحددة ، بوصفه مكاناً لوقوع الأحداث إلى فضاء يشغل مكانة فوقية، وذلك من خلال رواية الإنسان (ونخص هنا الإنسان البدوي)، فالصحراء سكانها بدو، لأن المكان الصحراوي « ربما كان المكان الأقدر على التدخل في حياة البشر وتغييرها باستمرار في الواقع أو في الرواية » (صالح، 1996م، صفحة 08). وعلى هذا الأساس فرق الأنثروبولوجيون بين العالم المتمدن والمجتمع البدائي العربي القبلي، القائم أساساً على آصرة القرى والعرف الذي يتحكم – كما قال تايلور- في كل نواحي الحياة في العالم غير المتمدين، « الذي أفرز ثقافة خاصة به، وتشكيلاً اجتماعياً مبنياً على علاقة القرابة والنسب كما أفرز قانوناً عرفياً، ونواميس

تمثلات المقدس والمهندس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا اجتماعية شديدة الخصوصية» (ميرال، محرمات قبلية، 2008م، صفحة 27)، ولعل ثنائية المقدس والمهندس هي من أهم أو أبرز خصوصيات المجتمع الصحراوي، لأن علاقة « الصحراء بالفكر الإنساني البدائي تنبني على تصور ما للقدسية، وبذلك يشغل المقدس في تشكيلاته إطارا للعقل القبلي، والديانات السماوية الكبرى كان لها اتصال وثيق بهذا العالم » (ميرال، محرمات قبلية، 2008م، صفحة 24).

إن العقلية الصحراوية مهيأة أكثر من غيرها في تقبل العرف والطقوس وعلاقتها بالعالم الآخر، لأن الصحراء ككل العوالم البدائية ذاكرتها شفاهية وغير مكتوبة، إنها شديدة التشابك مع المروي والحكائي والأسطوري، فالصحراء في علاقتها المقدسة بالزمن ومع المكان ومركزيته، وكذا مع الكائنات الأروحية كالجن وما شابه، طقوس التضحية والقربان تفرض شروطها المكانية وتتشكل في رحم المقدس والمهندس، لأن « المفهوم الصحراوي للمكان يخلق فضاءه الأرواحي المليء بالجن والمخلوقات غير المرئية، والعرافة والتنجيم وغيرها من التصورات الأروحية » (ميرال، محرمات قبلية، 2008م، صفحة 25). وبناء على هذا اجتمعت المجتمعات البدائية الصحراوية لا سيما القبلية لأن تعيش في إطار القداسة، التي تعتبر محور الرعى الذي تدور حوله كل اهتماماتها السياسية أو الاجتماعية أو الدينية، وحتى في عاداتها وتقاليدها وأعرافها وفي هذا الصدد يقول الياد « تميل – المجتمعات البدائية أو القديمة- إلى العيش بأكثر ما يمكن في المقدس أو في صميم الموضوعات المكرسة، وهذا الميل يمكن إدراكه. فبالنسبة للبدائيين كما هو الشأن بالنسبة لإنسان كل المجتمعات ما قبل الحديثة، كان المقدس يعادل القوة، وفي النهاية يعادل الحقيقة بامتياز إن المقدس مشع بالكينونة، وقوة مقدسة تعني في آن واحد حقيقة وخلودا وفاعلية» (إلياد، 1988م، صفحة 17).

وبما أن المقدس كما أفردت له المعاجد والمصادر اللغوية يصب في معنى الطهر، والنقاء، والصفاء، حيث ورد في مختار الصحاح، قدس مصدره الطهر ومنه قيل للجنة حظيرة القدس، وروح القدس/جبرائيل، والتقديس يعني التطهير، وتقدس أي تطهر، والأرض المقدسة أي المطهرة، ولهذا السبب اكتسب المقدس في العقلية الصحراوية مكانة استعلائية وقيمة اجتماعية، فمفهوم المقدس كما يبدو يتعارض مع المندس باعتبار هذا الأخير يحمل كل المعاني السلبية، ومنها الحظر المشتق من المحرم، فالشيء المحظور هو الشيء المحرم استخدامه، واختلاط القدسي بالمحرم يدل على أن المقدس قد يتمثل في عدد من المحرمات، لاسيما إذا تعلق الأمر بالمجتمعات الوثنية أو البدائية، التي تؤمن بتدخل قوى غيبية أو روحية في حياتها علاوة على علاقتها بالإله. ورغم اختلاف كل من المقدس والمندس إلا أن هناك من يوحد بينهما نحو يوسف شلحد، الذي يرى أنهما قوة واحدة « بوصفها مركز البركات أو بوصفها بؤرة لعنات» (يوسف، 1996م، صفحة 29).

وحتى نتمكن أكثر من الوقوف عند ماهية كل من المقدس والمندس اخترنا رواية "الخباء" لميرال الطحاوي، وهي نص روائي يعالج العالم الصحراوي المأثور بهذه الحقائق والمندس والمقدس القبليين اللذين تعدد أشكالهما ومظاهريهما نحو المرأة، الرجل، الطبيعة، الثقافة الشعبية، اللعنة، الجن، السحر، العرف... الخ.

2. المرأة كمقدس: شغلت المرأة مكانة واسعة في الفضاء الصحراوي، فهي أهم عناصره المادية التي شكلت جدلا كبيرا، وارتبطت بمفهوم الحرام، والمندس، والتابو، حيث كانت معظم المجتمعات القبلية الصحراوية تنبذ المرأة وتقدس الرجل، الذي يكتسب سلطته من سلطة المقدس السماوي نفسه، أما المرأة فهي مرادف للعار واللعنة ومهمتها تختزل في إنجاب الأطفال لاسيما الذكور، لأن الإناث هم سيمة الضعف، العار، واللعنة، لذلك كانت المجتمعات القديمة تقوم بؤاد البنات، ومن يحالفها الحظ في الحياة تعيش عبدة منبوذة ذليلة، أو جارية ضعيفة

تمثلات المقدس والمندس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا وخادمة مطيعة، وهذا ما ينطبق على المجتمعات الفرعونية والوثنية القديمة. لكن ليست كل النساء تلقى هذا المصير فهناك من حظين ببعض الاحترام ومنحن هالة من القداسة والأمر يتعلق هنا بنساء القصور أو جوزات الحكام والأغنياء، والمتصفح لرواية "الخباء" يلفت انتباهه مكانة الجدة العجوز "حاكمة"، التي يحمل اسمها كل معاني السلطة والحكم والإمارة، لقد كانت الأمرة الناهية في القبيلة وفي البيت يهابها الكبير ويخافها الصغير، يقول الراوي على لسان البطلة فاطم وهي تصف جدتها حاكمة « هي الآن تدخل، يفتحون لمقدمها أيضا الباب الكبير ويقف الجميع بانتظارها، نحيفة، أخف منه، فمها تبرق فيه الأسنان الذهبية. فيصبح مثل فم الغولة ثوبها أزرق داكن لا يتغير، فقط تغير العباءة التي ترتديها من دون سائر النسوة" (ميرال، 1999م، صفحة 15)، ثم تتساءل "فاطم" عن ماهية جنس جدتها التي تشبه الرجال في لباسها وحتى في سلوكها، فهي أقرب للرجل من المرأة الضعيفة فتقول « وهل هي نسوة؟ إنها أمانة جميعا، أمانة الغولة الكبيرة المتلفعة بتلافيع الرجال، تنخر فرسها العجوز الضخمة، وخلفها حمار بخرجين يسحبه العبد، ويتبعهما صبيان يحرثان بأقدامهما المفلطحة في الرمل» (ميرال، 1999م، صفحة 15). كيف لا وهي الجدة الحاكمة المتسلطة التي « يقف الجميع دون مدخلها ... ربما يقفون هناك بالدوار المقابل حيث ينتصب بيت الشعر، تهزول صافية أولا لتقبل يدها، يتبعها أفراد البيت تمرر يدها السوداء المعروفة بكبرياء عليهم» (ميرال، 1999م، صفحة 15)، فهي الراعية وصاحبة السلطة السياسية القبلية وأحد التابوات المحرمة سياسيا واجتماعيا، وهم الرعاية المحتاجة إلى رعاية الأشراف اللذين ينحدرون من الفراعنة العظام أو من قبيلة عدنان الأصيلة، تقول فاطم واصفة جدتها ومظهرها المتفرد والتميز عن الجميع « عيناها تتحسسان كل ما حولها تدفع قدمها في النعل وتلملم عباؤها وتدخل، وحين تخلع العباءة فإن الثوب الأزرق يبرق بالذهب، الحزام أو الحياصة

- كما تسميها- تطوق وسطها، مليئة بالدوائر الذهبية والعملات الثقيلة، تنحني مع الظهر المقوس قليلا وتشد كمها الواسعين لتبرز بين عروقتها السود صفوف "النبائل" والأساور من كلتا اليدين، وحتى دون أن تخلع مداسها فإن الخلخال الذهبي يبدو قميئا وسط العراقيب النحلية، والبروز في كواحلها» (ميرال، 1999م، صفحة 15)، لا تكتفي الجدة حاكمة بالتدخل في شؤون القبيلة فحسب، بل تتحسس كل كبيرة وصغيرة في البيت، تقول فاطم « لا أحبها، فإن عصاها التي تنخر بها الفرس سوف تدفسها في كل شيء، في صوان أخوتي، في دواليب الكرار، في جرار السمن والجبن، فضلا عن مخابئ الخزين، وعريشة الطيور، وستعد بيض البط الذي فقس والحمام الذي زعب، وستفتح كل صوامع الغلال لتتأكد من أنه لم يصبه التسوس، ولم تمد النسوة أيديهن إليه» (ميرال، 1999م، صفحة 15). لا تنام عين الجدة حاكمة على شيء ولا تخفى عليها خافية، فهاهي تعطي الأوامر وتبدي الملاحظات لصافية « الغرف ناقصة نظافة! الفول للعليق...الحمام لا تذبجي منه فردة ... البنانيلا تكفي لقنص أبيك... إن احتاج فأعطيه الزغاليل الصغيرة» (ميرال، محرمات قبلية، 2008م، صفحة 26).

إن الفضاء الصحراوي وبنيته العميقة له أثر كبير في تشكيل هوية المجتمع والفرد، وذلك عبر معامل من المعاملات النصية وهو المقدس الذي تعتبر المرأة أحد أشكاله والذي تحاول الصحراء استعادته عبر ما يسمى بالعجوز حاكمة البيت أو الراعية « وتتقبل العقلية البدوية ذلك باعتبار السلطان شيخ القبيلة الشريف، الولي، يكتسب سلطته الدينية من ما هو عرفي أو غيبي» (ميرال، محرمات قبلية، 2008م، صفحة 26)، ولذلك ظلت المجتمعات الصحراوية القبلية لها خصوصيتها المحكومة بمقدسات وضعية، أو غيبية تتحكم فيها مذاهب دينية أو قوى خفية « فالمقدس ليس الدين فقط وان كانت جذوره دينية، وإنما المقدس يكمن حتى في عادتنا اليومية واعتقادنا، في تفاؤلنا وتشاؤمنا، في النظم التي نحكم

تمثلات المقدس والمندس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا
 بها، في العلاقات ضمن العمل، وفي العائلة وحتى في المؤسسة الزوجية وفي
 البديهيّات والمسلمات والحكايات» (الرحمان، 2000م، صفحة 12)، والمتصفح
 لرواية الخباء يتحلى له العرف الذي يتجاوز التابو ويحول المندس إلى المقدس،
 ونستشف ذلك من خلال تصرفات الجدة حاكمة التي تغزو العالم الرجالي وتفتك
 منه بعض المظاهر السلوكية بحجة الراعي كبير ومقدس، حيث كانت « تفتش
 صدر المجلس على المقعد المبطن وتربع ساقها وتبدأ في لف التبغ في الورق
 الشفاف وحين يأتي "والد فاطم" فلن تكف عن فرك الدخان وستلمع عيناها
 الضيقتان الصغيرتان بمكروهي تسأله عن رحلته ومرعاه ويجلس بين يديها ضئيلا
 كأنني لم أُرصدته المليء بالعظمة قبل ذلك وكأنني لم أره يمشي والكل يركض من
 رهبته» (ميرال، 1999م، صفحة 16). إن المرأة المقدس في العالم الصحراوي قد
 تتجاوز قدسية الرجل وذلك بحكم مكانتها الاجتماعية أو صلاحيتها السياسية حتى
 بمقتضى العادات والتقاليد العرفية والوضعية، فالجدة حاكمة باعتبارها الأم
 الكبرى والراعية العظمى، كان ينحني أمامها ابنها الذي لا تجرؤ إحدى بناته
 الوقوف أمامه ولا يرفع أحد من الخدم رأسه في حضرته لرهبته، أما الجدة
 فكانت تشتم خلفته بلهجتها المستاءة بلا مناسبة « والله خلفتكم حرام الله ابتلاه
 وهو صابر تنظر إليه ولا يبدو عليه شيء من الاكتراث» (ميرال، 1999م، صفحة
 18).

إن رؤية ميرال الطحاوي للمرأة المقدس في البيئة الصحراوية البدوية ذات
 العقلية القبلية هي رؤية واقعية لمكانة المرأة الصحراوية، الخاضعة لكثير من
 المعتقدات الدينية والتعقيدات العرفية والسياسية، كما يمكن اعتبارها
 خصوصية قبلية مرتبطة بكل ما هو إنساني بيئي ومتفاعلة مع الظروف الجغرافية
 ومع التفاعلات الحياتية، وما تتضمن من قيم اجتماعية وتصورات للعالم
 وللوجود والإنسان في حد ذاته.

3- المرأة كمدنس: بما أن الصحراء العربية متنوعة عرقيا ودينيا، فإنها تحوي تشكيلات ثقافية وأصول وبطون متعددة كما لها رؤى متباينة وقد تكون متناقضة، وهذا ما ينطبق على صورة المرأة في العقلية والبيئة الصحراوية التي نجدها تقديسها وتضفي عليها هالة من عظمتها وجبروتها أحيانا، وفي أحيان كثيرة تنظر إليها بعين المدنس والمحرم والتابو، «فالنظام الصحراوي له نظريته الخاصة للمرأة المتأرجحة بين فكرة الدنس والتقديس في ازدواجية مربعة منذ عصر الجاهلية حتى الآن» (ميرال، محرمات قبلية، 2008م، صفحة 44)، ولقد ارتبطت المرأة كثيرا بفكرة المدنس المتمثل أساسا في فكرة اللعنة كما هو الحال في رواية "الخباء"، حيث ترجع الجدة حاكمة عدم إنجاب ابنها الذكور وابتلائها - حسبها - بأربع بنات إلى زوجها الملعونة أو المسمومة - كما يحلو لها مناداتها- تقول فاطم واصفة جدتها عند توزيعها للهدايا التي أتت بها من سفرتها، « تقذف في حجر كل واحدة قطعة وثوبا وأحيانا زجاجة من زيت الزيتون الأخضر تبرق فيه الأعشاب، تكوم نصيب أُمي في جهة وتقول وهي تسلط عينها الحادثتين على صافية: هذا للمسمومة والله حرام فيها الزاد جلاية الخلفة الحرام » (ميرال، 1999م، صفحة 17)، لم تقتصر اللعنة على الأم فقط بل تعدتها إلى ابنتها فاطم، وكأن نسلها كله مسموم ومشؤوم فلقد كانت الجدة حاكمة تنعت فاطم أيضا باللعنة وتنعت بيت ابنها الخالي من الذكر بالواحة الجرداء، لا ماء فيها ولا نبات حيث تقول: « قلت له بيت بلا رجل كواحة بلا بئر ملعونة يا خلقة السوء» (ميرال، 1999م، صفحة 35). تنظر بعض المجتمعات القبلية الصحراوية إلى المرأة على أنها مدنس في حد ذاتها، ولأسيما إذا تعلق الأمر بالفلاحات أو الخدمات من العبيد فمن خلقن فقط للشقاء والهم، ذلك ما نستشفه من قول الجدة حاكمة للبنات العاملات في منزلها « اللعنة على وجوه من أنجبكن فلاحات نجسات قليلات الحياء» (ميرال، 1999م، صفحة 32)، وهو ما يدل على أن المجتمع

تمثلات المقدس والمهندس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا البدوي الصحراوي هو مجتمع طبقي « يا نجاسة تعدلي لا عدل رقبتك تحت نعلي» (ميرال، 1999م، صفحة 32)، ثم تستأنف حديثها فتقول « يا نجاسة يا دودة الأرض متى تغسلن وجوهكن في ماء الحياء» (ميرال، 1999م، صفحة 32).

إن مفهوم المهندس تماما كالمقدس يتجاوز إطاره الديني والعرفي، إلى عالم آخر تحكمه قوى غيبية وروحانية، إنه عالم الجن والأرواح الشريرة الذي تعد المرأة من أهم عناصره لذلك قيل المرأة شيطان والمرأة جنية، وهذه الصفات ترتبط أكثر بالعقلية البدوية الصحراوية، ولقد أشارت إلى ذلك ميرال الطحاوي في رواية الخباء، وهذا ما نستشفه من خلال نعت الجدة حاكمة زوجة ابنها بالجنية وبالشيطان على إثر فقدانها لابنها، حيث تقول العجوز « والله يقضي عليك وعلمها في ليلة واحدة وعلى هذه الجنية التي تعكز وراءكما» (ميرال، 1999م، صفحة 77) ثم تواصل دعواتها « كان وليد والله دمه في ثوبها دم وليد كان مثل دم ذبيحة، دم الخلقة المشؤومة زفر» (ميرال، 1999م، صفحة 77)، تحاول صافية تهدئتها وتذكيرها بقضاء الله وقدره قائلة « قدر الله يا ستنا ما بأيدينا شيء» (ميرال، 1999م، صفحة 78)، لكن الجدة تصر على فكرة المس بالشياطين واللعنة فتقول « قدر الله أم مس الشياطين من يومها جلابة رزايا كل وليد يرزقها الله به ينخطف، يا روجي من صرعها الممسوسة فال الشؤم» (ميرال، 1999م، صفحة 78)، ثم تستأنف الحديث فتقول « قلت البنت مخاوية الجينات ولا تصدقوني .. من عاشرها لا بد أن تصيبه الرزايا .. ممسوسة يا خلق، من يقربها هالك» (ميرال، 1999م، صفحة 107). المرأة مهندس لأنها في نظر المجتمعات القبلية الصحراوية عار لا بد من ستره، والزواج هو الحل برأيهم ، لذلك ألحت الجدة حاكمة على ابنها تزويج بناته في سن مبكر حتى لا يجلبن له الفضيحة، ذلك ما نستشفه من السياقات التالية:

- « قيدها بقيد حديد وأرميها في بيت سعيد» (ميرال، 1999م، صفحة 41).

- « والله بيت فيه كل هذه الرزايا بيت مشؤوم طير الطيرة الغبرة، حتى يخلف الله عليك بالولد يا وليدي» (ميرال، 1999م، صفحة 42).

- « والله جلبت شؤم .. وقنايتهم حرام بضاعة تربها لغيرك، إن تركتها بارت وإن بعثها عليك الخسارة» (ميرال، 1999م، صفحة 82).

يلاحظ المتتبع لتركيبية المجتمعات القبلية الصحراوية أن ثنائية المقدس والمدنس تسير كل أمورهم، فالحلال والحرام، الطيب والخبيث، الشر والخير، ثنائيات ضدية حاضرة ومتجذرة في ذهنياتهم وملازمة لحياتهم، فهذه الجدة حاكمة وعلى الرغم من إيمانها باللجنة وبالجن والشؤم، إلا أنها تؤمن أيضا بوجود الله وبقدرته، ذلك ما نستشفه في إجابتها عن سؤال وجه لها من قبل بعض النسوة اللاتي حضرن حفل زفاف صافية وفوز، حيث قالوا لها: أين تذهب بناتك؟ فأجابتهن « يكفيننا الله شر بلا ياهن .. والله ما عاشت لي بنت .. قلت الله يكفيني شرهن، مصلية والله مصلية وداعية» (ميرال، 1999م، صفحة 83)، وحين يغادرنا النسوة الوليمة تتنفس الجدة بتأفف « خلصت من نصف البضاعة وبقي هم النصف الآخر» (ميرال، 1999م، صفحة 83).

لقد حاولت ميرال من خلال رواية "الخباء"، وبواسطة شخصية الجدة حاكمة خصوصا الاشتغال على المتن الذي يخص أو يمس البناء القبلي الرعوي البدوي، وكذا البناء الذهني العقلي اللذين يشكلان بنية مجتمعات بعيدة عن عالم المدينة، وذلك من خلال إسهامها في تكوين وعي المجتمع الصحراوي وتصوره للوجود.

4- المرأة كمدنس (الغواية): ارتبطت فكرة المرأة المدنس بالغواية، فعلى الرغم من أن المرأة الصحراوية البدوية كانت تعيش على هامش الرجل القبلي، المسيطر على كل شيء لأنه مقدس والمقدس لا بد من احترامه وتبجيله وطاعته، تقول الجدة حاكمة أمرة صافية بطاعة زوجها « والله ان ما جمعت خلقتك وأطعت

تمثلات المقدس والمندس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا

سيدك ورجلك لأذبحك كيف الذبيحة، وأعلقك في وتد بيته يا عاصية يا ملعونة» (ميرال، 1999م، صفحة 85)، إلا أن هذه المرأة ورغم ضعفها كان يهابها المجتمع ولا يأتين لها أو عليها، لا لشيء إلا لكونها ارتبطت بالخطيئة والدنس والغواية، فهي التي أخرجت آدم من الجنة وهي التي تسببت في قتل هابيل لقابيل، وهي التي خرقت قوانين فرعون وجلبت اللعنة لطيبة، وهذه الأسباب وغيرها كثيرة جعلت من الجدة حاكمة تحذر صهرها من زوجته صافية فتقول: « عقلت رأسك هالملعونة أ لله يلعنهن جميعا وأنا أولهن» (ميرال، 1999م، صفحة 81)، فعلى الرغم من اختلاف مكانة الجدة عن "صافية" وأخواتها وأترابها، إلا أنها تؤكد أن المرأة ترتبط ارتباطا وثيقا بالغواية وباللعنة وبالدنس، وهذه الأفكار متجذرة ومتشعبة بها ذهنية المجتمع القبلي الصحراوي، وعلى هذا الأساس كان دائما يحذو الذكر الفحل من جميع الأجناس على المرأة التي يعتبرها رديفة الحيوان، بل ربما أقل من ذلك، حيث لا يجرؤ الرجل البدوي القبلي على تسميتها، أو منادتها ويكتفي بنعتها بالمهرة أو الفرس أو الهيمة والشاة ... والسياقات التالية توضح ذلك:

- تقول الجدة عن ضرورة تزويج بنات ابنها « نضجت السنابل، والفلاحون أنجاس يسرقون كحل عينك، وخلقة السوء التي ابتليتني بها جاءت الأكفان وأنت هارب في الفجاج» (ميرال، 1999م، صفحة 41).

- وتقول موبخة فاطم « ان ما هابت السكك تشرذ النعجة» (ميرال، 1999م، صفحة 60).

- ويخاطب زوج "صافية" الجدة بشأن زوجته فيقول « المهرة ناقرة ولازمها سياسات ... وأمها بنت عمي وعمك ما هي طريدة من الطرايد قيدها بقيد حديد وأرميها في بيت سعيد» (ميرال، 1999م، صفحة 81).

أما صهر الجدة فيلقي باللوم على ابنها بسبب عدم تمكنه من تربية بناته فيقول «البنتان رجعتا إما أن تردهما اثنتين أو تبقيهما في مرعك، صبرت

عاما، وسايست المهرة حتى تعلمت الحران، إذا لم تعرف كيف تعقف لجامها وأنت أبوها فكيف يسوسها سائس؟!» (ميرال، 1999م، صفحة 94).

وتشتم الجدة البنات بمعية الخادما وتنعتهن بالندس فتقول « يا نجاسة يا دود الأرض متى تغسلن وجوهكن في ماء الحياء ... سارعي يا خليعة لا خلع نعلي في ضبك المفتوح» (ميرال، 1999م، صفحة 37).

وكما تتنوع صور المندس تتباين أيضا أشكال المقدس وتنوع مظاهره. لأن المجتمعات القبلية الصحراوية محكومة في مختلف نواحي الحياة بصور المقدس، فالعالم الصحراوي له عناصره الخاصة وطبيعته المميزة التي تنعكس لا محالة على ثقافته وعاداته وأعرافه وحتى ديانته وطقوسه اليومية. ولعل أبرز ما يميز المكان الصحراوي هو الخيمة أو "الخباء".

5- الخيمة كمقدس: تمثل الخيمة علامة فارقة وهوية خاصة للحياة القبلية البدوية، فهي سمة خاصة بها، وهذا ما دفع بميرال الطحاي إلى وسم روايتها بالخباء، فالخيمة هي الفضاء المفتوح الذي يشعر البدوي برحابة الصحاري وعالمها المطلق، وبأنه امتداد لها، فهي هويته وكيانه، إنها « المسكن الأكثر اتساقا مع واقع الصحراء، المتعرض دائما للتغير ودفع سكانه إلى الارتحال من موقع إلى آخر» (ميرال، 1999م، صفحة 41). فالخيمة مرآة لثقافة وطبائع قاطنيها، هذا ما نستشفه من قول "فاطم" « يأتي أبي، كف عن الترحال، نصب خيمته في الفناء المواجه وسكنها، يقول الحجرات المغلقة مسكونة بالأرق ولا يغمض له جفن إلا في الخلاء، يفرشون له الفرش ويكشف رأسه وينام، يسقط الندى فينعس» (ميرال، 1999م، صفحة 60)، فالخيمة تمنحه الطمأنينة والراحة والسكينة « بعد دقائق سيرتفع الخباء واسعا مفتوحا يسد الخلاء المواجه» (ميرال، 1999م، صفحة 81)، فالخيمة عكس الغرف المغلقة التي تشعره بالضيق والأرق والاختناق تماما كفاطم ابنته فهي تحبذ الخيمة على القصور إذ تقول « القصر والمقاصير

تمثلت المقدس والمندس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا موحشة والسماء مليئة بالضوء والقناديل والنجوم باهية، أبحث عن نعيش ... أبحث عن الزهرة في الليالي الكالحة، أبحث عن رفيقات القمر، لا أرى إلا سماء بعيدة وصقراء باهتة وأضواء القناديل تنعكس على المرايا فتفسد كل شيء» (ميرال، 1999م، صفحة 94).

إن الخيمة تجعل فاطم تشعر بالسعادة، كيف لا وهي مفتوحة على السماء الزرقاء وأنوار النجوم البيضاء، فهي رمز الجمال والبهجة، فهي تعيش في ذاكرتها وفي وجدانها وما هي تسترجع ذكرياتها مع أبيها الذي «ينصب بيت الشعر حين يجيء، ويفرشون حوله البسط العجمية الحمراء وفي الجانب المقابل كانت أشجار الساسابان تطل على الفضاء والأرض التمرية» (ميرال، 1999م، صفحة 23). فالخيمة إذن ليست تيمة أو علامة تميز الطابع العمراني أو بالأحرى الحياتي "السكن"، بل هي رمز للهوية العربية الأصلية وجزء من ثقافة المجتمع الصحراوي القبلي، وأحد أهم طقوسه، وشاهد عيان على أبرز صفاته المتمثلة أساسا في الكرم والجود والضيافة، فهي هي "فاطم" تذكر مراسيم قدوم والدها من السفر هو ومرافقيه فتقول: « يجيء يفرد عباءته، فتركض الأحضان الى أحضانه ... والعبيد يجرون الأحمال يلقون بيت الشعر من على هامة المهري، ويبداون في قف الأوتاد .. بعد دقائق سيرتفع الخباء واسعا مفتوحا يسد الخلاء المواجه، وسوف تمتلئ كل شقوقه بالضيوف» (ميرال، 1999م، صفحة 39)، فالخيمة رمز الهمة والطلاقة وعلامة من علامات الرفعة والعلياء.

6-الرياح كمدنس: تمثل الرياح أحد أهم عناصر الطبيعة الصحراوية التي ارتبطت بمفهوم السلبية والأذى الذي تلحقه بالناس والحياة، فهي التي تسبب زحف الرمال وانتشارها صوب المناطق الزراعية والواحات، ولهذا نجد كل من عبد الرحمان منيف في "مدن الملح" وعبد الحميد بن هدوقة في روايته "ريح الجنوب" وكذا غالب هلسا في "الخماسين" لم يربطوا الرياح بأي معنى ايجابي أو حسن، بل

لم تسهم إطلاقاً في تكوين مشاهد رحبة تستمد جمالها وشاسعتها وكذا عظمتها من خاصيتها الرحبية ويندر في الصحراء ارتباط الرياح بالخصوبة والغيث، بل تحمل كل علامات الغضب واللعة والموت، ولذلك كان سكان الصحراء يخافونها ويقرؤون التعاويذ عند مجيئها فهي كما تنعتها "سقيمة" جنية من جنيات الصحاري حيث تقول فاطم: «حتى جاءت تلك الخماسين المغيرة .. تقول إنها جنيات الصحاري رغم أنها لا تخاف الشتاء بسيوله الجارحة وتقول دائما السيل له مجرى لكن غبار الصحاري لا بد أن يخطف حبيبا» (ميرال، 1999م، صفحة 122) فالرياح دائما في الذهنية الصحراوية خصوصا ترتبط بالموت والهلاك، لذلك يحاولوا قاطني الصحراء التحصن منها بممارسة بعض الطقوس، تقول "فاطم" «تتحصن "سقيمة" بالتعاويذ في شق الخيمة وتتحسس جدرانها ولا يخرجون حتى تنتهي الفورة، ويتعلق الغبار عن حرارة الصيف الصاهرة، تتلوى تحتها الرمال، لكن تلك الغبرة كان لا بد أن تخطف أحدا» (ميرال، 1999م، صفحة 122).

وبالفعل خطفت الرياح "مسلم" الذي اختفى بلا سبب «حين غطس تلك المرة لم يعد، كانت الخماسين تغفر، اختفى من أمام خيمتها، استطلعوا كثيرا وسألوا الرائج والغادي واختلفت الأقوال في اختفائه» (ميرال، 1999م، صفحة 105)، لم تكتف الرياح بإخفاء مسلم بل تعدت على كل عناصر الطبيعة كالشمس والليل «فاحت رائحة الهواء المترب فقالت "سقيمة": خماسين .. الغزالات تمأىء. تلثم بالعمائم وخبأوا أفواههم وحط السكون، صفير الريح وحده هو الذي تكلم، وزامت الريح أكثر، ورمحت وطمست بالغبار عين الشمس التي تورمت قزحتها فأحكم "مسلم" لثامه وأدار نصف عباءته حول كتفيه ... بينما الرمال تركل كل شيء في طريقها ... وتكف الريح عن الزوم. يحط الصمت، حتى الليل بلا نجمة، الغبار سحب داكنة» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 89).

تمثلات المقدس والمقدس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا

7-الثقافة الشعبية (العادات والتقاليد) كمقدس: إنّ الصحراء مليئة بعناصرها الطبيعية، كما تزخر أيضا بثقافتها الشعبية وعاداتها وتقاليدها اليومية والمناسباتية، التي تشكل رافدا مهما من روافدها الحضارية والتراثية التي تشكل أبعادها التاريخية والنفسية والجمالية، ومن أبرز الطقوس الصحراوية القبلية المقدسة التي تزخر بها رواية "الخباء" لميرال الطحاوي نذكر:

1- طقوس الزواج: وهي كثيرة ومتنوعة تنوع البيئة الصحراوية ومن أهمها:

1-1- الحناء: التي تعتبر مقدسة بالنسبة للمرأة الصحراوية وترتبط "الحناء" دائما بالفرح والبهجة، وفي هذا السياق تقول "فاطم" واصفة رائحة الحناء التي تفوح من ساقى وكفى "صافية" « رائحة الحناء كانت تتسرب في كل ركن ممزوجة بالمستكة والبان وخليط الدهون النفاذة على الجدران، الأثواب الزاهية تطوي مضمخة بالعطور» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 70). وعلى الرغم من أن صافية كانت مرغمة على زواجها إلا أن الجدة كانت تلح على الخضاب فتقول « صرت ملك رجلك ياخلقة السوء، منذ متى صار لك لسان يا بعر المطايا، مالك خيرة في شيء يا بغيضة» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 70).

1-2- الوشام: وهو علامة من علامات المرأة الصحراوية الأصلية « وأن تلك المرأة النحيلة المليئة بالوشمات أصيلة جدا وعفيفة النفس» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 140). ورمزا لنضوجها وتيمة فارقة بين المرأة المتزوجة أو المقبلة على الزواج، والفتاة العازبة التي تعرف بالوشم تحت الذقن، وعن عملية الوشم تقول فاطم عن جدتها « والصبايا يتابعنها، يتحلقن حولها. تدفع لإحداهن بقرش نحاسي فتستدير لها بالمخيط وترفع دقنها باتجاه النار وترشق بسنها اللحم، توخذه بسرعة ويندفع الدم من الشقوق يندفع وهن يصفقن تصفيقهن الرتيب وتزداد الهمهمات بوشمة خضرة وشرشها شافها نور العين أدهشها ... بوشمة

خضرة رشرشها شافها نور العين دهشتها هووه» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 26).

8- طقوس الزواج (الرقص والغناء) كمقدس: لكل حدث في الحياة الصحراوية طقوس مقدسة تجعله منفردا ومتميزا عن سائر الأحداث، فالزواج مراسيم خاصة وترتيبات مميزة، تجعله يوما مقدسا في الذاكرة والقلب، هذا ما حدث مع "فاطم" التي لا تزال تذكر حفل زفاف أختها "صافية وفوز" فتقول « وسط الحلقات المتناثرة على عبق البن أو الصف الذي نتراص بمواجهته واحدة تسلم لأختها، تبرقع بالسواد، وتشد الشاش أكثر ويضحكن، يلطنن كعوبهن بالرماد المطفأ، ويتضمخن كفوفهن، يحبكن الحزام على الخضر.. والزغاريد ترسل صداها: مرحبا بالباس الغالي ... يابو زول عليه القيمة واحدة تؤوب وأخرى تخرج» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 69). لا يقتصر الرقص والغناء على الصبايا، بل يشاركنهم الفرحة الشباب الذين « يتسابقون بخيولهم، يسبقون الموكب ويعودون والصبايا يرمقنهم ... ويتعالى الهمس المعتاد، والصفير يعلو من كل جانب "يا ستار النار كلتنا ... والعين السوداء قتلتنا" والزغاريد تفلق سكون الأرض الرملية» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 73)، وفي طقوس الزواج الصحراوية تذوب بعض المقدسات وتضمحل بعض العادات وتتلاشى، بحجة مقدسات أكبر أو لضرورات أكثر وكما يقال - الضروريات تبيع المحظورات- فالجدة التي كانت ترى في حفيداتها مدنس وتنعتن بخلقه السوء وجلب العار والفضيحة، تسمح لهن في الزفاف بالغناء والرقص مع الفتيان أو الفرسان، لا لشيء إلا لكون الرقص والغناء أحد مقدسات الزواج، تقول "فاطم" « يتلوى الصف، يروح ويجيء يباغتها المبارز، يلاعها ... تروح وتجيء بين تنهدات صوته بالغزل، تتلوى بالقرب من أنفاسه، لا يستطيع أن يمد يده ليسحب أطراف اللثام، ويكشف الوجه المحفوف بالشيق ... تلهث باتجاه الشق وتخرج أخرى» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 69).

تمثلات المقدس والمهندس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا ريحانة التي فعلت كل هذا، لم تعنفها الجدة حاكمة و « لم تجذبها الجدة من ضفائرها المتدلّية من تحت "القنعة" ولم تقل لها جلبت لنا الفضيحة يا خلقة السوء ! بل ظلت مبتسمة والوجوه المليئة بالندوب بادلنها ابتسامتها بايتساماة أكثر اتساعا» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 70). إنها شرعية المقدس وأهميته وأسبقيته على المهندس الذي يتلاشى ويأفل في حضرة المقدسات.

9- طقوس الجنائز كمقدس: لا تقتصر المقدسات على الزواج أو الأفراح فحسب، بل تتعداه إلى الجنائز التي تتميز بمراسيمها وطقوسها التي نذكر منها: - عبارات المواساة المذكورة بقضاء الله وقدره، التي من شأنها تخفيف الحزن على أهل الفقيد وفي هذا السياق يقول والد "فاطم" لها اثموت والداتها « يا فاطم اليأس حاكم والموت مكتوب» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 82)، ومن طقوس الجنائز التلّغ بالسواد ودق الطبول والعويل المفعم بعبارات الحرقاة والعذاب تقول فاطم «السكوت وحده هو الذي صار يطوق كل شيء .. لا شيء إلا عديد " يا حرقاة قلبي يا ناري" الطبول دقت حتى كرهت نقر الماء في أحجيتة، ظلت تدوي ثلاثة أيام (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 82)، وإضافة إلى ذلك يصبغ الوجه بالنيلة السوداء، كما هو حال الجدة حاكمة التي ظلت تبكي زوجة ابنها وتلطم خديها مرددة معهن (النسوة)، صابغة وجهها بالنيلة السوداء " مناقب كنتها قائلة: «- كنت أميرة وبنت كرام- كنت زهرة ما بين الأشجار - كنت زينة ما مثلك حد- كنت جميلة سبحان الصوار» (ميرال، رواية الخباء، 1999م، صفحة 82). بالرغم من عدم محبة الجدة لزوجة ابنها التي تلقبها بالممسوسة لأنها تنجب الذكور إلا انها كانت تمدحها بعبارات مؤثرة مشيدة بمناقبها لأنه من طقوس الجنائز التذكير بخصال الميت الطيبة.

10. خاتمة:

هذه بعض المقدسات وكذا المدنسات التي سلطت عليها ميرال الطحاوي الضوء في رواية "الخباء"، التي عرفت بالمجتمع القبلي الصحراوي وبأوضاعه وما يتميز به من عادات وتقاليد وأعراف، كما عدت لنا الكاتبة أهمّ الحضارات المكون له والمتمثلة أساسا في حضارة البدو وحضارة الفلاحين وحضارة الفراعين الغابرة، كما حاولت إعادة الاعتبار لبعض المقدسات والمحرمات القبلية، التي تشكل جزءا من الهوية العربية الأصلية ومن تراثنا الذي جعل من الصحراء العربية علما متميزا ومكانا مقدسا أضفى بدوره على كل عناصره هالة من القداسة والعظمة، وفي هذا السياق يقول المفكر الفرنسي كلود ليفي شتراوس (CLOUDE LEVIE-STIEAUSEM): «أن وجود الأشياء المقدسة في أماكنها هو ما يجعل منها مقدسة لو انتزعت من أماكنها، حتى لو فكّريا، لتهدم نظام العالم بكامله لذلك فالأشياء المقدسة تسهم في إبقاء العالم على نظام باحتلالها المواضع التي وضعت فيها» (61). ورغم تباين مقدساتنا ومدنساتنا وغرايتهما أحيانا وجب احترامهما وتقديرهما، لأنهما جزء من تراثنا وهويتنا العربية الأصلية.

تمثلات المقدس والمهندس في الرواية الصحراوية " الخباء لـ"ميرال الطحاوي" أنموذجا

11. قائمة المصادر والمراجع:

- الطحاوي ميرال. (1999م). *رواية الخباء* (الإصدار ط:01). بيروت: دار الآداب.
- الطحاوي ميرال. (2008م). *محرمات قبلية* (الإصدار ط:01). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- شلح يوسف. (1996م). *بني المقدس عند العرب* (الإصدار (دط)). بيروت: دار الطليعة.
- صلاح صالح. (1996م). *الرواية العربية والصحراء* (الإصدار (دط)). دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- عبد الهادي عبد الرحمان. (2000م). *عرش المقدس* (الإصدار (دط)). بيروت: دار الطليعة.
- مارسيا إلياد. (1988م). *المقدس والمهندس* (الإصدار (دط)). (تر:عبد الهادي عباس، المترجمون) دمشق.